

مطبوعات المجمع

آثار الشيخ العلامة محمد الأمين الشنقيطي

(٢)



العذب النمير

من مجالس الشنقيطي في التفسير

للشيخ العلامة محمد الأمين بن محمد المختار الجكني الشنقيطي

١٣٢٥ - ١٣٩٣

تحقيق

خالد بن عثمان السبت

إشراف

بكر بن عبد الله أبو زيد

المجلد الخامس

دار عطاءات العلم

دار ابن حزم

وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ [التوبة: آية ٢٩] ثم صرّح بأن أهل الكتابين من المشركين في قوله: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ۝٣٠ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٣١﴾ [التوبة: الآيتان ٣٠، ٣١] فصرح بأنهم مشركون بعد أن صرح بمنع المشركين من المسجد الحرام أتبعه بأن الكتابيين من نفس المشركين، وهذا برهان واضح.

وقال: ﴿ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا . . . ﴾ [التوبة: آية ٣١] ومعلوم أن الذي اتخذ الأحبار والرهبان أرباباً من المشركين شرك ربوبية كما لا يخفىٰ. وسيأتي في هذه الآيات الكريمة من سورة براءة بيان أن كل من اتبع تشريع أحد ونظامه واتبع تشريع الشيطان المخالف لتشريع الله كل متبع لتشريع الشيطان الذي يشرعه على ألسنة أوليائه تاركاً تشريع الله الذي شرعه على ألسنة رسله كافرٌ مشرك بالله[1]، كما سنوضحه في هذه الآيات الآتية. ومن أصرح الأدلة عليه أنه لما وقعت تلك المناظرة المشهورة بين حزب الرحمٰن وحزب الشيطان في حكم من أحكام الحلال والحرام، وحزب الشيطان يقولون: إن ذلك الحكم حلال، ويستدلون بوحي شيطاني، وحزب الرحمٰن يقولون: إن ذلك الحكم حرام. ويستدلون بوحي قرآني، لما اختصموا وأدلىٰ كل بحجته تولىٰ الله الفصل بينهم فأفتىٰ بينهم فتوىٰ سماوية تتلىٰ قرآناً في سورة الأنعام في قوله: ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ ﴾ يعني الميتة؛ لأن الكفار أوحىٰ إليهم الشيطان: أن سلوا محمداً عن الشاة تصبح ميتة، من هو الذي قتلها؟ فقال لهم:

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٧) من سورة الأنعام.

الله قتلها. فقالوا: إذن ما ذكيتموه وذبحتموه بأيديكم حلال، وما ذبحه الله بيده الكريمة حرام، فأنتم أحسن من الله. فهؤلاء استدلوا بوحي إبليسي!! ما ذبحتموه حلال، وما ذبحه الله حرام، فأنتم إذن أحسن من الله!! والمسلمون استدلوا بوحي قرآني، وهو ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ﴾. فلما أدلىٰ كل بحجته فصل الله بينهم فأفتىٰ في قوله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ منه الميتة، أي: وإن زعموا أنها ذبيحة الله. ثم قال: ﴿وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ﴾ [الأنعام: آية ١٢١] أي: الأكل منها فسق. ثم قال: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ﴾ يعني قولهم: ما ذبحتموه حلال، وما ذبحه الله حرام، فأنتم إذن أحسن من الله. ثم قال، وهو محل الفتيا السماوية من رب العالمين: ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾﴾ [الأنعام: آية ١٢١] فصرح بأن من أطاع تشريع الشيطان في حِل الميتة أنه مشرك برب العالمين، ولا شك أن اليهود والنصارىٰ أطاعوا الشيطان فيما هو أعظم من إباحة الميتة كما لا يخفىٰ، والشيطان عالم بأن الذين يتبعون نظامه وقانونه أنهم مشركون به، عالم هذا في قرارة نفسه، ولكنه في الدنيا يدلس لهم ويجحد، فإذا كان يوم القيامة الذي تظهر فيه الدفائن، وتبرز فيه الحقائق أوضح لهم تبرؤه من شركهم به كما سيأتي في سورة إبراهيم الخليل في الخطبة العظيمة التي ذكرها الله عن الشيطان، وهي قوله: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي ۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ ۖ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ ۖ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ ۗ﴾ [إبراهيم: آية ٢٢] فصرح بأنهم كانوا مشركين به من قبل، ولا شك أن اليهود والنصارىٰ داخلون في

هذا دخولاً أولياً، وكذلك قوله: ﴿إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [النحل: آية ١٠٠] واليهود والنصارى داخلون فيهم بلا شك، وهذا الشرك الشيطاني في اتباع نظامه وشرعه هو الذي وبَّخ الله مرتكبه في سورة (يَس)، وبيّن مصيره النهائي في قوله: ﴿۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى﴾ [يَس: الآيتان ٦٠، ٦١] إلى أن قال موبخاً لهم ناعياً عقولهم: ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ۖ أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [يَس: آية ٦٢] ثم بيّن مصيرهم النهائي الأخير في قوله: ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ﴾ [يَس: الآيتان ٦٣، ٦٤] وهذا الشرك الشيطاني بالاتباع هو الذي نهى إبراهيم عنه أباه في قوله: ﴿يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ﴾ [مريم: آية ٤٤] وقال تعالى: ﴿بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ﴾ [سبأ: الآية ٤١] وسيأتي لهذا المبحث زيادة إيضاح بالآيات القرآنية قريباً في الآيات الآتية ـ إن شاء الله ـ . في الكلام على قوله: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: آية ٣١] فهذه النصوص ولا سيما آية براءة هذه التي صرحت أن خصوص أهل الكتاب من المشركين تدل على منعهم من دخول الحرم، وما نُقل عن بعض العلماء ورُوي عن الإمام أبي حنيفة من أنهم لا مانع من دخولهم الحرم، فيه نظر، والأصوب والأظهر أنهم يمنعون منه؛ لأنهم نجس؛ ولأن الله صرّح بأنهم مشركون. والتحقيق ـ إن شاء الله ـ أن المراد بالمسجد الحرام فيها الحرم كله، فلا يجوز أن يدخل حرم مكة مشرك بالله ولا كافر، كتابياً أو غيره، وما روي عن جابر (رضي الله عنه) من أنه خصص هذه الآية الكريمة وقال: لا يدخل فيها العبد والأمة، إذا كان للمسلم عبد ذمي أو أمة ذمية

وقال بعض العلماء: (قاتله الله) كلمة تعجب تقولها العرب إذا تعجبت من شيء يقولون: قاتل الله فلاناً ما أفعله لكذا. أو ما أشد استحقاقه لأن يُقتل، أو نحو ذلك.

قوله: ﴿أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾﴾ ﴿يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾﴾ (يُفعلون) من الإفك، والإفك: أسوأ الكذب؛ لأن أصل مادة (أَفَكَه) إذا قلبه. كل شيء قلبته فقد (أَفَكْته) ومنه قيل لقرى قوم لوط: (المؤتفكات) لأن جبريل أَفَكَها، أي: قلبها فجعل عاليها سافلها. وإنما سُمي أسوأ الكذب (إفكاً) لأنه صرف للكلام عن معناه الصحيح إلى معاني أخر كاذبة[1]. وهذا معنى قوله: ﴿قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [التوبة: آية ٣٠].

قال تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [التوبة: الآيات ٣١ ـ ٣٣].

يقول الله (جلّ وعلا): ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾﴾ [التوبة: آية ٣١].

ذكر الله (جلّ وعلا) في هذه الآيات الكريمات من سورة براءة

(١) مضى عند تفسير الآية (٨٠) من سورة الأعراف.

جرائم اليهود والنصارى فعد منها أنهم نسبوا له الأولاد، وأتبع ذلك بقوله: ﴿قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ۝٣٠﴾ [التوبة: آية ٣٠] كيف يُصرفون عن الحق مع وضوحه، ويَدَّعُون للواحد الأحد الذي لم يلد ولم يولد، يَدَّعُون له الأولاد فيقولون: عُزير ابن الله، والمسيح ابن الله؟ سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً.

ثم ذكر من معائبهم وإجرامهم بلايا أُخر فقال: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾ [التوبة: آية ٣١] أي: واتخذوا المسيح ابن مريم رباً من دون الله أيضاً. وهذه الآية جاء عن النبي ﷺ أنه فسرها لعدي بن حاتم (رضي الله عنه) لما سأله عنها، فقد أخرج الترمذي وغيره عن عدي بن حاتم (رضي الله عنه) أنه أتى النبي ﷺ وفي عنقهِ صليب من ذهب، فقال له ﷺ: «اطرح هذا الوثن من عنقك» وسمعه يقرأ: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ ـ وكان عديٌّ في الجاهلية نصرانياً ـ فقال عدي: ما كنا نعبدهم من دون الله. فقال له النبي ﷺ: «ألم يُحلوا لكم ما حرّم الله، ويحرموا عليكم ما أحلّ الله فتتبعوهم؟» قال: بلى. قال: «ذلك عبادتهم»(١). وهو معنى اتخاذهم أرباباً. وهذا التفسير النبوي المقتضي أن كل من يتبع مُشَرِّعاً فيما أحل وحرم مخالفاً لتشريع الله أنه عابد له، متخذه رباً، مشركٌ به، كافر بالله هو تفسير صحيح لا شك في صحته، والآيات القرآنية الشاهدة لصحته لا تكاد تحصيها في المصحف الكريم، وسنبين ـ إن شاء الله ـ طرفاً من ذلك:

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٧) من سورة الأنعام.

اعلموا أيها الإخوان أن الإشراك بالله في حكمه والإشراك به في عبادته كلاهما بمعنى واحد، لا فرق بينهما البتة، فالذي يتبع نظاماً غير نظام الله، وتشريعاً غير ما شرّعه الله، وقانوناً مخالفاً لشرع الله من وضع البشر، معرضاً عن نور السماء الذي أنزله الله على لسان رسوله، من كان يفعل هذا هو ومن يعبد الصنم ويسجد للوثن لا فرق بينهما البتة بوجه من الوجوه، فهما واحد، فكلاهما مشرك بالله، هذا أشرك به في عبادته، وهذا أشرك به في حكمه، والإشراك به في عبادته، والإشراك به في حكمه كلاهما سواء، وقد قال الله (جلّ وعلا) في الإشراك به في عبادته: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾ [الكهف: آية ١١٠].

وقال في الإشراك به في حكمه أيضاً: ﴿لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ ۚ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾﴾ [الكهف: آية ٢٦]. وفي قراءة ابن عامر من السبعة: ﴿ولا تشرك في حكمه أحدا﴾[1] بصيغة النهي المطابقة لقوله: ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾ [الكهف: آية ١١٠] فكلاهما إشراك بالله؛ ولذا بيّن النبي لعدي بن حاتم أنهم لمّا اتبعوا نظامهم في التحليل والتحريم وشرعهم المخالف لشرع الله كانوا عبدة لهم، متخذيهم أرباباً، والآيات القرآنية في المصحف الكريم المُصَرِّحة بهذا المعنى لا تكاد تحصيها، ومن أصرحها: المناظرة التي أشرنا لها في الأيام الماضية، ووعدنا بإيضاح مبحثها هنا، وهي المناظرة التي وقعت بين حزب الرحمٰن وحزب الشيطان في حكم تحليل لحم الميتة وتحريمه، فحزب الشيطان يقولون: إن الميتة حلال، ويستدلون

(١) مضى عند تفسير الآية (١٠٦) من سورة الأنعام.

بوحي من وحي الشيطان، وهو أن الشيطان أوحى إلى أصحابه وتلامذته في مكة أن اسألوا محمداً عن الشاة تصبح ميتة من هو الذي قتلها؟ فلما قال: الله قتلها. احتجوا على النبي وأصحابه في تحريمهم الميتة بفلسفة من وحي الشيطان وقالوا: ما ذبحتموه وذكيتموه بأيديكم حلال، وما ذبحه الله بيده الكريمة بسكين من ذهب تقولون حرام!! فأنتم أحسن من الله إذاً!! فهذا فلسفة الشيطان ووحي إبليس استدل بها كفار مكة على اتباع نظام الشيطان وتشريعه وقانونه بدعوى أن ما ذبحه الله أحلّ مما ذبحه الناس، وأن تذكية الله أطهر من تذكية الخلق، واستدل أصحاب النبي والنبي ﷺ على تحريم الميتة بوحي الرحمٰن في قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ﴾ [المائدة: آية ٣] ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ﴾ [البقرة: آية ١٧٣] فأدلى هؤلاء بنص من نصوص السماء، وأدلى هؤلاء بفلسفة من وحي الشيطان، ووقع بينهم جدال وخصام، فتولى رب السماوات والأرض الفتيا في ذلك بنفسه فأنزلها قرآناً يتلى في سورة الأنعام معلماً بها خلقه، أن كل من يتبع نظاماً وتشريعاً وقانوناً مخالفاً لما شرعه الله على لسان رسول الله ﷺ فهو مشرك بالله كافر متخذ ذلك المتبوع رباً، فأنزل الله ذلك في قوله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾ منه الميتة. أي: وإن قالوا: إنها ذكاة الله، وأنها أطهر. ثم قال: ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ﴾ أي: إن الأكل من الميتة لفسق. أي: لخروج عن طاعة الرحمٰن إلى طاعة الشيطان ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ﴾ من الكفَرَة ككفار مكة ﴿لِيُجَٰدِلُوكُمْ﴾ لأجل أن يجادلوكم بوحي الشيطان، ما ذبحتموه حلال، وما ذبحه الله حرام، فأنتم أحسن من الله. ثم قال ــ وهو محل الشاهد ــ : ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ﴾ أي:

اتبعتموهم في ذلك النظام الذي وضعه الشيطان لأتباعه وأقام دليلاً من وحيه عليه ﴿إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾﴾ بالله، متخذون من اتبعتم تشريعه رباً غير الله. وهذا الشرك في قوله: ﴿إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾﴾ هو الشرك الأكبر المخرج عن ملة الإسلام بإجماع المسلمين، وهو الذي أشار الله إليه في قوله: ﴿إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [النحل: آية ١٠٠] وهو الذي صرّح به الشيطان في خطبته يوم القيامة المذكورة في قوله: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ﴾ [إبراهيم: آية ٢٢] وهو المراد على أصح التفسيرين في قوله: ﴿بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ﴾ [سبأ: آية ٤١] يعبدون الشياطين باتباعهم أنظمتهم وتشريعاتهم على ألسنة الكفار، وهو الذي نهى عنه إبراهيم أباه: ﴿يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ﴾ [مريم: آية ٤٤] أي: باتباع ما يقرر لك من نظام الكفر والمعاصي مخالفاً لشرع الله الذي أنزله على رسله، وهذه العبادة بعينها هي التي وبّخ الله مرتكبها وبيّن مصيره الأخير في سورة يٓس في قوله: ﴿۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾﴾ [يٓس: آية ٦٠] ما عبدوه بسجود ولا ركوع وإنما عبدوه باتباع نظامٍ وتشريعٍ وقانون شرع لهم أموراً غير ما شرعه الله فاتبعوه وتركوا ما شرع الله فعبدوه بذلك واتخذوه رباً كما بيّنه النبي ﷺ لعدي بن حاتم (رضي الله عنه)، فهذا أمر لا شك فيه، وهو المراد بقوله: ﴿وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾﴾ [النساء: آية ١١٧] يعني: ما يعبدون إلا شيطاناً مريداً، أي: عبادة اتباع نظام وتشريع. واعلم أن قوماً زعموا أنهم يريدون أن يتحاكموا إلى شرع الشيطان والذي وضعه، وادّعوا مع ذلك أنهم

مؤمنون فَعَجَّب الله نبيه من دعواهم الكاذبة الفاجرة التي لا يمكن أن تصدق في سورة النساء في قوله (جلّ وعلا): ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّـٰغُوتِ﴾ [النساء: آية ٦٠]. كل من تحاكم إلى غير ما أنزل الله فهو متحاكم إلى الطاغوت، وهؤلاء قوم أرادوا التحاكم إلى الطاغوت وزعموا أنهم مؤمنون بالله فعجّب الله نبيه من كذب هؤلاء وعدم حيائهم في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ﴾ يُعَجِّبه منهم ﴿يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّـٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَـٰنُ﴾ الذي شرع لهم تلك النظم والأوضاع التي يسيرون عليها ﴿وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَـٰلًۢا بَعِيدًا ۝٦٠﴾ وأقسم الله (جلّ وعلا) إقساماً سماوياً من رب العالمين على أنه لا إيمان لمن لم يُحَكِّم رسول الله فيما جاء به عن الله خالصاً من قلبه في باطنه وسره في قوله: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ۝٦٥﴾ [النساء: آية ٦٥] وبيّن الله (جلّ وعلا) في آيات كثيرة من كتابه أن الحكم له وحده لا شريك له في حكمه، وكلما ذكر اختصاصه بالحكم أوضح العلامات التي يعرف بها بين من يستحق أن يحكم ويأمر وينهى ويشرع ويحلل ويحرم، وبين من ليس له شيء من ذلك، قال تعالى: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [يوسف: آية ٤٠] ﴿لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ﴾ [القصص: آية ٧٠] وسنبين لكم أمثلة من ذلك، من ذلك قوله في سورة الشورى: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ﴾ [الشورى: آية ١٠] ثم إن الله كأنه قال: هذا الذي يكون المرجع إليه،

والقول قوله، والكلمة كلمته، حتى يُرد إليه كل شيء، اختُلف فيه ما صفاته التي يتميز بها عن غيره؟ قال: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ ثم بيّن صفات من يستحق الحكم والتشريع والتحليل والتحريم والأمر والنهي فقال: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّى عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ۝١٠ فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا ۖ يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ ۚ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ۝١١ لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ۝١٢﴾ [الشورى: الآيات ١٠ ـ ١٢] هذه صفات من له أن يحكم ويحلل ويحرم ويأمر وينهى، أفترون أيها الإخوان أن واحداً من هؤلاء القردة الخنازير الكلاب أبناء الكلاب الذين يضعون القوانين الوضعية فيهم واحد يستحق هذه الصفات التي هي صفات من له أن يحكم ويحلل ويحرم ويأمر وينهى؟!! ومن الآيات الدالة على هذا النوع قوله تعالى في سورة القصص: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝٧٠﴾. ثم بيّن صفات من له أن يحكم فقال: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ۝٧١ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ۝٧٢ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝٧٣﴾ [القصص: الآيات ٧٠ ـ ٧٣] هل في الكفَرَة القردة الخنازير الكلاب أبناء الكلاب الذين يضعون النظم ويزعمون أنهم يرتبون بها علاقات الإنسان ويضبطون بها شؤونه هل في هؤلاء من يستحق أن يوصف بهذه الصفات التي هي صفات من له أن يحكم ويأمر وينهى ويحلل

ويحرم؟! ومن ذلك قوله تعالى في أخريات القصص: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَآ إِلَٰهَ [١] [إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾] [القصص: آية ٨٨].

[٦/أ] / والآيات القرآنية في مثل هذا كثيرة جداً. والحاصل أن التشريع لا يكون إلا للأعلى الذي لا يمكن أن يكون فوقه آمرٌ ولا ناهٍ ولا متصرف، فهو للسلطة العليا، أما المخلوق الجاهل الكافر المسكين فليس له أن يُحلل ويحرِّم، والعجب كل العجب من قوم كان عندهم كتاب الله ورثوا الإسلام عن آبائهم، وعندهم هذا القرآن العظيم، والنور المبين، وسنّة خير الخلق ﷺ، يبيّن الله ورسوله كل شيء، ومع ذلك يعرضون عن هذا زاعمين أنه لا يحسن القيام بشؤون الدنيا بعد تطوراتها الراهنة، يطلبون الصواب في زبالات أذهان كفرة خنازير، لا يعلمون شيئاً!! هذا من طمس البصائر ـ والعياذ بالله ـ لا يصدق به إلا من رآه، ولكن الخفافيش يعميها نور القرآن العظيم، فالقرآن العظيم نورٌ عظيم، والخفاش لا يكاد أن يرى النور:

خَفَافِيْشُ أعمَاهَا النَّهَارُ بضَوئِهِ فَوَافَقَهَا قِطْعٌ من الليلِ مُظْلِمُ[٢]

فهذا القرآن العظيم ينصرفون عنه، وترى الواحد الذي هو مسؤول عنهم يعلن في غير حياء من الله ولا حياء من الناس بوجه لا ماء فيه، بكل وقاحة أنه يحكم في نفسه وفي الناس الذين هم رعيته الذين هو مسؤول عنهم يحكم في أديانهم، وفي أنفسهم، وفي عقولهم، وفي أنسابهم، وفي أموالهم، وفي أعراضهم، قانوناً أرضياً

---

(١) في هذا الموضع انقطع التسجيل، وقد أكملت الآية وجعلت ذلك بين معقوفين.

(٢) مضى عند تفسير الآية (١٢٨) من سورة الأنعام.

وضعه خنازير كفرة جهلة أنتن من الكلاب والخنازير، وأجهل خلق الله، معرضاً عن نور السماء الذي وضعه الله (جلّ وعلا) على لسان خلقه، فهذا من طمس البصائر لا يصدِّق به إلا من رآه ــ والعياذ بالله ــ اللّٰهم لا تطمس بصائرنا ولا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا.

واعلموا أيها الإخوان أن كل من يتعالم أمام الخالق (جلّ وعلا) بلا حياء في وجهه أنه يعرض عمّا أنزل الله على محمد ﷺ مدعياً أنه لا يقدر أن يقوم بتنظيم علاقات الدنيا يطلب النور والهدى في زبالات أذهان خنازير كفرة فجرة جهلة في غاية الجهل أنه هو وفرعون وهامان وقارون في الكفر سواء؛ لأنه لا يعرض عن الله، وعن تشريع الله، ويفضِّل عليه تشريع الشيطان، ونظام إبليس الذي شرعه على ألسنة أوليائه إلا من لا نصيب له في الإيمان بوجه من الوجوه، كما رأيتم الآيات الكثيرة الدالة على ذلك، وتعجيب الله نبيه من ادعاء مثله الإيمان. فعلى المسلمين جميعاً أن يعلموا ويعتقدوا ــ ونحن نقول: لا شك يجب على كل مسلم كائناً من كان أن يعلم ــ أنه لا حلال إلا ما أحلّه الله، ولا حرام إلا ما حرّمه الله، ولا دين إلا ما شرّعه الله، فمن سِوَى الله لا تحليل له ولا تحريم؛ لأنه عبد مسكين ضعيف مربوب، عليه أن يعمل بما يأمر به ربه، فيتبع ما يشرعه ربه. وهذا معنى قوله: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ الأحبار: جمع حَبْر بفتح الحاء وكسرها. والتحقيق أنهما لغتان. والأحبار: العلماء. والرهبان: المتعبدون المنقطعون في الصوامع، وهو جمع راهب، وشذّ قوم فقالوا: إن الواحد منهم يقال له (رهبان) واستدلوا

بقول الراجز[(١)]:

لو كلَّمتْ رُهْبَانَ ديرٍ في الجَبَل لأقبلَ الرهْبَانُ يَهْوي ونَزَل

أنه واحد. والتحقيق: أنه جمع راهب.

﴿أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ الأرباب: جمع رب؛ لأنهم عبدوهم، والعبادة من صفات الرب (جلّ وعلا) وحده لا يُعبد سواه.

﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ﴾ بما أُمروا به من الدين ﴿إِلَّا﴾ لأجل أن يعبدوا الله وحده ﴿إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾ أي: معبوداً واحداً ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ لا معبود بحق إلا هو وحده (جلّ وعلا) ﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾ أي: تنزيهاً له أتم تنزيه عما يشركونه به شرك ربوبية وشرك طاعة وشرك عبادة.

وهذه الآية من سورة براءة بيّن الله فيها أن النصارى واليهود مشركون كما أشرنا إليه سابقاً. وهذا معنى قوله: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾﴾ [التوبة: آية ٣١].

﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ [التوبة: آية ٣٢] قال بعض العلماء: نور الله هو هذا القرآن العظيم، وقد سمى الله هذا القرآن نوراً في آيات كثيرة كقوله: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾﴾ [المائدة: آية ١٥] ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا﴾ [النساء: آية ١٧٤] ﴿وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ﴾ [الشورى: آية ٥٢] ﴿وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ﴾ [الأعراف: آية ١٥٧] ﴿وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا﴾ [التغابن: آية ٨] هو نور

(١) البيت لعروة بن حزام، وهو في ديوانه ص ٣١، فتح القدير (٦٨/٢)، ولفظ الشطر الثاني:

«لـزحـف الـرهبـان يمشـي وزحـل»

(. . .)[١] بهمزة محققة، وقرأه ورش وحده عن نافع: ﴿إنما النسيُّ زيادة في الكفر﴾ [التوبة: آية ٣٧] بياء مشددة، وما زعمه بعضهم ـ وقال به ابن جرير ـ من أن قراءة ورش هذه عن نافع غلط[٢]. خلاف التحقيق، بل هي قراءة سبعية صحيحة لا كلام فيها، قرأ بها ورش عن نافع ﴿إنما النَّسِيّ زيادة في الكفر﴾ أبدلت الهمزة ياء، ثم أُدغمت الياء في الياء كما يقرأ بعض القراء: ﴿النبيء﴾ بالهمزة وبعضهم يقرأ ﴿النبيُّ﴾[٣] بتشديد الياء[٤].

وقرأ قوله: ﴿يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ قرأه نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وشعبة عن عاصم: ﴿يَضِلُّ به الذين كفروا﴾ بفتح الياء وكسر الضاد، مضارع (ضَلَّ يَضِلُّ) مجرداً لازماً، وقرأه حمزة والكسائي وحفص عن عاصم: ﴿يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ بضم

---

(١) ذهب جزء من التسجيل في هذا الموضع، ويمكن أن نستدرك بعض النقص فننقل القراءات الواردة في ﴿النسيء﴾ عن كتاب «السبعة» لابن مجاهد ص ٣١٤، حيث يقول: «اتفقوا على همز ﴿النَّسِيءُ﴾ ومده وكسر سينه، إلا ما حدثني به محمد بن أحمد بن واصل، عن محمد بن سعدان، عن عبيد بن عقيل، عن شبل، عن ابن كثير أنه قرأ: ﴿إنما النَّسْءُ زيادة﴾ في وزن (النَّسْعُ)، وحدثني ابن أبي خيثمة، وإدريس، عن خلف، عن عبيد، عن شبل، عن ابن كثير أنه قرأ: ﴿إنما النَّسِيُّ﴾ مشددة الياء غير مهموزة، وقد رُوي عن ابن كثير: ﴿النَّسْيُ﴾ بفتح النون وسكون السين وضم الياء مخففة، والذي قرأت به على قنبل: ﴿النَّسِيءُ﴾ بالمد والهمز مثل أبي عمرو، والذي عليه الناس بمكة: ﴿النَّسِيءُ﴾ ممدودة». اهـ.

(٢) تفسير ابن جرير (١٤/ ٢٤٤).

(٣) تقدمت عند تفسير الآية (١١٢) من سورة الأنعام.

(٤) انظر: البحر المحيط (٥/ ٣٩)، الدر المصون (٦/ ٤٦).

الياء وفتح الضاد مبنياً للمفعول(١).

أما قراءة ﴿يَضَلُّ به الذين كفروا﴾ و ﴿يُضِلُّ به الذين كفروا﴾ فليستا سبعيتين(٢).

وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو: ﴿زُين لهم سُوءُ وَعْمالهم﴾ بإبدال الهمزة الثانية واواً. وقرأه غيرهم من السبعة: ﴿سُوٓءُ أَعۡمَٰلِهِمۡۗ﴾ بتحقيق الهمزة الثانية(٣). هذه هي القراءات السبعية في الآية.

وسبب نزول هذه الآية الكريمة هو ما أشرنا إليه بالأمس أن الكفار كانوا يتلاعبون في الأشهر الحرم(٤)، وبعضهم يقول: في أشهر الحج، فيحرمون منها ما لم يحرمه الله، ويحلون ما لم يحلله الله(٥). فبيّن (جلّ وعلا) في هذه الآية أن ذلك كفر على كفر، أنه كفر ازدادوا به كفراً على كفرهم الأول.

والعلماء مختلفون في أول من سنّ هذه السنة السيئة الخبيثة، وهي سنة النسيء. فكان بعض العلماء يقول: أول من أحدثه الملعون عمرو بن لحي بن قمعة بن إلياس بن مضر، وهو الخبيث الذي هو أول من جاء بالأصنام إلى جزيرة العرب، وهو أول من بحَّر البحائر فيها، وسيَّب السوائب، وغيّر معالم دين إبراهيم التي كانت في جزيرة

---

(١) انظر: السبعة ص ٣١٤.

(٢) انظر: المحتسب (١/ ٢٨٨ ـ ٢٨٩).

(٣) انظر: الإتحاف (٢/ ٩١).

(٤) كما أخرج ذلك ابن جرير (١٤/ ٢٤٥)، من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٥) أخرج ذلك ابن جرير (١٤/ ٢٤٨) عن مجاهد.

العرب عليه لعائن الله(١).

وأكثر المؤرخين يقولون: إن أول من سنّ هذه السنّة القبيحة قوم من بطن من بني كنانة يسمى بني فقيم، وهم من أولاد مالك بن كنانة، يزعم العرب أنهم كانوا متمسكين بدين إبراهيم، وكانوا يشرعون لهم ما شاؤوا، ويتبعونهم فيما شاؤوا، يقال: إن أول من فعل ذلك منهم رجل يسمى نعيم بن ثعلبة(٢).

والذي قاله غير واحد من المؤرخين وأوضحه ابن إسحاق في سيرته أن أول من فعل هذا منهم رجل يُسمى القَلَمَّس. والدليل على ذلك موجود في أشعارهم. واسم القَلَمَّس هذا حذيفة بن عبيد بن فقيم، وبنو فقيم بطن من بني مالك بن كنانة. كان هذا الرجل الذي هو حذيفة المعروف بالقلمّس يقول لهم: سأؤخر عنكم تحريم المحرّم وأنسؤه إلى صفر، فاذهبوا فقاتلوا في المحرّم فإني حولت حرمته إلى صفر. فهم يتبعونه، ثم لما مات القَلَمَّس قام بهذا الأمر بعده ابنه عباد بن القَلَمَّس، فكان يحل لهم هذا التحليل وهذا التحريم، ثم لما مات عباد قام به بعده ابنه قَلَعُ بن عباد، ثم لما مات قام به بعده ابنه أمية بن قَلَع بن عباد، ثم لمّا مات قام به بعده ابنه عوف بن أمية، ثم لمّا مات قام به بعده ابنه جنادة بن عوف المعروف بأبي ثمامة، كنيته ككنية مسيلمة الكذاب، وهو الذي قام عليه الإسلام وهو بهذه السُّنة السيئة الخبيثة. كانوا إذا انتهت أيام حجهم وانقضت أيام منى ذهبوا إلى هذا الرجل الذي هو أبو ثمامة جنادة بن عوف بن أمية الكناني فيقول: أنا الذي لا يُعاب ولا يُجاب،

(١) انظر: القرطبي (١٣٨/٨).

(٢) السابق.

ولا مرد لما أقول، أخَّرت عنكم تحريم المحرم إلى صفر[١]. فيتبعونه، فجاء الإسلام بتغيير هذا ورد كل شيء إلى محله.

وقد ذكرنا بالأمس أن العلماء اختلفوا في الأشهر الحرم هل حرمتها باقية إلى الآن؟ ويكون من نسأ النسيء الآن ازداد كفراً وفعل كفراً. أو هي منسوخة ولا تحريم في الأشهر الحرم، وأن قتال العدو يجوز في جميع الأشهر[٢]؟ وذكرنا بالأمس أن المشهور عند العلماء الذي عليه الأكثر أنه قد نُسخ تحريم الأشهر الحرم، واستدلوا على ذلك بظواهر آيات ليست صريحة في ذلك، ومن أصرح ما استدلوا به هو ما ذكرنا من أنه ثبت في الصحيحين أن النبي ﷺ حاصر ثقيفاً في غزوة الطائف بعضاً من ذي القعدة[٣]. وهذا ثابت في الصحيحين ثبوتاً لا مطعن فيه. قالوا: لو لم تنسخ لما حاصر النبي ﷺ ثقيفاً في ذي القعدة وهو شهر حرام. وقد ذكرنا بالأمس أن الذي كان يظهر لنا وننصره أن تحريم الأشهر الحرم قد نُسخ، وأن الذي تحققناه بعد ذلك وصرنا نجزم به أنها باقية التحريم إلى الآن، ولم يُنسخ تحريمها، كما كان يقسم عليه عطاء بن أبي رباح (رحمه الله)، كان يحلف أن حرمتها باقية[٤]. ومن أصرح الأدلة في ذلك هو الحديث الذي أشرنا إليه أمس؛ لأن النبي ﷺ خطب به يوم النحر في حجة

(١) أخرجه ابن جرير من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس (١٤/ ٢٤٥)، وذكره ابن هشام في السيرة ص ٥٦.

(٢) مضى عند تفسير الآية (٥) من سورة التوبة.

(٣) السابق.

(٤) أخرجه أبو عبيد في الناسخ والمنسوخ ص ٢٠٧، والنحاس في الناسخ والمنسوخ (١/ ٥٣٥)، وابن جرير (٤/ ٣١٤). =

الوداع عام عشر، ولم يعش بعد ذلك إلا نحو ثمانين يوماً، وقد صرّح فيه بأن ذلك الشهر حرام، وذلك اليوم حرام، وذلك البلد حرام[١]، ولم يأت بعد ذلك شيء ينسخ هذا التحريم الثابت عنه (صلوات الله وسلامه عليه).

وهذه الآية الكريمة قبل أن نشرع في تفسيرها نشير إلى أن فيها حكماً يجب على كل مسلم أن يعتبر به وينظره؛ لأن هؤلاء القوم كفار، كانوا يسجدون للأصنام، فلما أحلّ لهم رجل شيئاً حرّمه الله، وحرّم عليهم شيئاً أحلّه الله، وهم يعلمون أن الله حرّم تلك الأشهر الحُرم، ولا يشكون في ذلك، وأن هذا الرجل الكناني أحلّ لهم ما حرّمه الله، وحرّم عليهم ما أحلّه الله، فاتبعوا تحريم هذا الإنسان، فصرّح الله بأن هذا كفر جديد ازدادوه إلى كفرهم الأول. فهذه الآية الكريمة من سورة براءة من أصرح النصوص القرآنية في أن كل من اتبع نظاماً غيرَ نظام الله، وتشريعاً غير تشريع الله، وقانوناً غير قانون الله، أنه كافر بالله، إن كان يزعم الإيمان فقد كفر، وإن كان كافراً فقد ازداد كفراً جديداً إلى كفره الأول. والآيات الدالة على هذا المعنى لا تكاد تحصيها بهذا المصحف الكريم، الذي هو أعظم كتاب أنزله الله من السماء إلى الأرض، وهو آخر كتاب أنزله الله على أكرم نبي، وآخر نبـي جمع فيه له علوم الأولين والآخرين. وسنذكر لكم طرفاً من ذلك كما ذكرناه قبل هذا مراراً[٢] نبين به أن الحلال هو ما أحلّه الله، والحرام هو ما حرّمه الله، والدين هو ما شرعه الله، وأن كل من اتبع نظاماً وتشريعاً وقانوناً ــ ولو سماه ما سماه ــ غير ما أنزله الله

(١) مضى عند تفسير الآية (٥) من هذه السورة.
(٢) مضى عند تفسير الآية (٥٧) من سورة الأنعام.

في وحيه على نبيه ﷺ أنه كافر بذلك، فإن كان كافراً قبله ازداد كفراً جديداً إلى كفره الأول، وإن كان يزعم الإيمان فقد جاء بما يكفر به.

ومن أصرح الأدلة في هذا: المناظرة العظيمة المشهورة التي وقعت بين الكفار والمسلمين في حكم من أحكام الحلال والحرام، فالمسلمون يقولون: إن هذا الأمر حرام. ويستدلون بنص من نصوص الوحي. وحزب الشيطان وتلامذته وأتباعه يقولون: إن هذا الحكم حلال. ويستدلون على ذلك بفلسفة من وحي الشيطان. ويأتي كل منهم بدليله، فلما تحاجوا وتخاصموا وحصل الجدال بينهم في ذلك أفتى الله تعالى بنفسه فتوى سماوية تُتلى علينا قرآناً في سورة الأنعام، وإيضاح هذا: أن الشيطان ـ لعنه الله ـ جاء كفار قريش وقال لهم: سلوا محمداً ﷺ عن الشاة تصبح ميتة، من هو الذي قتلها؟ فأجابهم: الله قتلها. فقالوا: إذن ما ذبحتموه بأيديكم حلال، وما ذبحه الله بيده الكريمة بسكين من ذهب تقولون: هو حرام، فأنتم إذن أحسن من الله!! فأنزل الله في ذلك بإجماع العلماء في سورة الأنعام هذه الفتوى السماوية بعد أن بيّن الله خصام المتخاصمين فيها فقال: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾ الميتة. وإن زعم حزب الشيطان أنها ذبيحة الله، وأن ما قتله الله أحلّ مما قتله الناس. ثم قال: ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ﴾ الضمير في قوله: ﴿إِنَّهُۥ﴾ راجع إلى المصدر الكامن في جوف الفعل الصناعي في قوله: ﴿تَأْكُلُوا۟﴾ أي: وإنه أي: الأكل من الميتة ﴿لَفِسْقٌ﴾ أي: خروج عن طاعة الله، وإن زعم حزب الشيطان أنها ذبيحة الله، وأن ما قتله الله أحلّ وأطهر مما قتله الناس. ثم قال: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَـٰدِلُوكُمْ﴾ ﴿لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ﴾ وحي الشيطان ﴿لِيُجَـٰدِلُوكُمْ﴾ بالوحي

الشيطاني، وهو قولهم: ما ذبحتموه حلال، وما قتله الله حرام، فأنتم إذاً أحسن من الله!! ثم أفتى الله الفتوى السماوية التي تتردد في آذان الخلق مساءً وصباحاً بقوله: ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾﴾ [الأنعام: آية ١٢١] وإن أطعتم أتباع الشيطان في تحليل ما حرّمه الله ﴿إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾﴾ بالله شركاً أكبر، كما قال في هؤلاء ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ﴾ [التوبة: آية ٣٧] وهذا الشرك شرك أكبر مخرج عن الملة؛ لأنه شرك طاعة، وشرك الطاعة شرك في الحكم، والشرك في الحكم كالشرك في العبادة لا فرق بينهما البتة؛ لأن الله هو الملك الجبار العظيم الأعظم لا يرضىٰ أن يكون معه شريك في عبادته ولا أن يكون معه شريك في حكمه سبحانه (جلّ وعلا) أن يكون له شريك في عبادته أو شريك في حكمه، وقد بيّن هذين الأمرين في سورة واحدة من كتابه وهي سورة الكهف، فقال في الإشراك به في عبادته: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴿١١٠﴾﴾ [الكهف: آية ١١٠] وقال في الإشراك به في حكمه: ﴿لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا ﴿٢٦﴾﴾ [الكهف: آية ٢٦] فمن اتخذ تشريعاً غير تشريع الله، واتبع نظاماً غير نظام الله، وقانوناً غير ما شرعه الله ـ سواءً سماه نظاماً أو دستوراً، أو سماه ما سماه ـ هو كافر بالله؛ لأنه يقدم ما شرعه الشيطان على ألسنة أوليائه مما جُمع من زبالات أذهان الكفرة على نور السماء الذي أنزله الله (جلّ وعلا) على رسله ليُستضاء به في أرضه، وتنشر به عدالته وطمأنينته ورخاؤه في الأرض.

وهذا مما لا نزاع فيه، وهذا الشرك الذي هو شرك اتباع، اتباع

قانونٍ ونظامٍ وتشريع هو الذي يوبخ الله مرتكبه يوم القيامة على رؤوس الأشهاد في سورة يس في قوله تعالى: ﴿۞أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ . . .﴾ [يس: آية ٦٠] ما عبدوا الشيطان بأن سجدوا للشيطان، ولا ركعوا للشيطان، ولا صاموا له، ولا صلوا، وإنما عبادتهم للشيطان هي اتباع ما سنّ لهم من النظم والقوانين من الكفر بالله ومعاصي الله. ثم قال: ﴿وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا﴾ [يس: الآيتان ٦١، ٦٢] أي: خلائق كثيرة لا تحصىٰ.

ثم وبخ عقولهم فقال: ﴿أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [يس: آية ٦٢] ثم ذكر المصير النهائي للذي كان يتبع نظام إبليس، وقانون الشيطان في دار الدنيا ذكر مصيره النهائي في قوله: ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾﴾ الآيات [يس: الآيتان ٦٣، ٦٤]. وهذا هو معنىٰ قول إبراهيم: ﴿يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ﴾ [مريم: آية ٤٤] أي: لا تتبع ما شرع لك الشيطان وسنه من الكفر بالله، ومعاصي الله، وهو معنىٰ قوله: ﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا﴾ [النساء: آية ١١٧] أي: ما يدعون إلا الشيطان، وهو دعاء عبادة باتباع نظامه وتشريعه. وهو أصحّ الوجهين في قوله (جلّ وعلا) في الملائكة: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [سبأ: آية ٤٠] لأن الملائكة قالوا: ﴿بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ﴾ [سبأ: آية ٤١] أي: يتبعون الشياطين ويعبدونهم باقتفاء ما يسنون لهم من القوانين والنظم، وهذا أمرٌ لا نزاعٍ فيه، فكل من يتبع نظام أحد وتشريع أحد وقانونه فهو متخذه رباً؛ ولذا جاء في الحديث المشهور عن عدي بن حاتم (رضي الله عنه) أنه لما جاء النبي ﷺ وكان في

عنق عدي صليب فقال له النبي: «يا عديّ ألق هذا الوثن من عنقك» وصادفه يقرأ سورة براءة هذه، سمعه يقول: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: آية ٣١] وكان عدي نصرانياً في الجاهلية فقال: ما كنا نتخذهم أرباباً. فأجابه النبي بما معناه: ألم يحلوا لكم ما حرّم الله ويحرّموا عليكم ما أحلّ الله فتتبعوهم؟ قال: بلىٰ. قال: تلك عبادتهم، وبذلك اتخذتموهم أرباباً[1].

فهذه الآيات الكريمة تدل على أن كل من يتبع نظاماً غير نظام الله وإن سماه قانوناً أو دستوراً أو سماه ما سماه فهو كافرٌ بالله، ولو كان كافراً قبل ذلك وارتكب شيئاً يعلم أن الله حرّمه فحلّل ما يعلم أن الله حرّمه، أو حرّم ما يعلم أن الله حلّله، فإنه ولو كان كافراً قبل هذا يزداد بذلك كفراً جديداً إلى كفره الأول، كما قال هنا: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ﴾ [التوبة: آية ٣٧] وهذا معروف لا نزاع فيه بين العلماء، فالحلال هو ما أحلّه الله، والحرام هو ما حرّمه الله، والدين هو ما شرعه الله، ولا تشريع إلا لله؛ لأن التشريع والأمر والنهي لا يكون إلا للسلطة التي ليس فوقها شيء، والله (جلّ وعلا) هو خالق هذا الخلق، وخالق النعم التي أنعم بها عليه، فهو الملك فلا يرضىٰ أن يأمر فيه غيره وينهىٰ، بل الأمر له وحده، والنهي له وحده، والتشريع له وحده، فكل مشرع دونه ضال، وكل متبع تشريعاً غير تشريعه فهو كافر به ــ جلّ وعلا ــ وقد بيّن الله (جلّ وعلا) في آيات كثيرة هذا المعنىٰ، فكان قوم في زمن النبي ﷺ أرادوا أن يتحاكموا إلى غير شرع الله، وادّعوا أنهم مؤمنون فعجّب الله نبيه من كذب دعواهم، وأن دعواهم الإيمان لا تصحّ بوجه من الوجوه مع إرادتهم

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٧) من سورة الأنعام.

التحاكم لغير الله، وذلك في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾﴾ [النساء: آية ٦٠] فعجبه من دعواهم الإيمان وهم يريدون التحاكم إلى غير ما شرعه الله، وهذا لا يخفىٰ، وأقسم الله (جّل وعلا) في آية من كتابه أنه لا يؤمن أحدٌ حتى يكون متبعاً في قرارة نفسه لما جاء به سيّد الرسل محمد (صلوات الله وسلامه عليه) وذلك بقوله: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء: آية ٦٥] هذا قسم من الله أقسم بـه ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ فما ظنكم بالذين يحكمون فيما شجر بينهم قانون نابليون وما جرىٰ بعده من زبالات أذهان الكفَرَة؟ ألا ترون أن الله أقسم في هذه الآية من سورة النساء أنهم لا يؤمنون؟ ومن أصدق من الله قيلاً؟ ومن أصدق من الله حـديثـاً؟ فعلىٰ كـل مسلـم أن يعلـم أن الحـاكـم هـو الله، وأن الحكم لله وحده، وأنه لا يُحلّ إلا الله، ولا يُحرم إلا الله، فلا حلال إلا ما أحلّه الله، ولا حرام إلا ما حرّمه الله على لسان رسوله ﷺ، ولا دين إلا ما شرعه الله. فما عمّت به البلوىٰ من انصراف جلّ من في المعمورة عن نور السماء الذي أنزله الله على سيّد خلقه وأعظم رسله، موضحاً له في أعظم كتاب أنزله من سمائه إلى أرضه، منصرفين عن هذا مع وضوح أدلته وقيام براهينه وصيانته لمقومات الناس؛ لأن القرآن العظيم والسنّة النبوية المبينة له جاء فيهما غاية الحفاظ على جميع مقومات الإنسان في دار الدنيا والآخرة، ولا سيّما الجواهر الستة التي يدور عليها نظام العالم في الدنيا ونظام العدالة

والجور فيه، وهذه الأمور الستة لا يوجد شيء أشد محافظة عليها مما جاء به سيد الخلق محمد (صلوات الله وسلامه عليه)، ونعني بهذه الستة التي أشرنا إليها: المحافظة على الدين السماوي الذي هو الصلة بين السماء والأرض وبين الله وخلقه، ثم المحافظة على الأنفس من القتل والإزهاق، ثم المحافظة على الأنساب من الضياع والاختلاط وتقذير الفرش، ثم المحافظة على العقول من الضياع؛ لأن العقول إذا ضاعت صار المجتمع حيوانات يضرب بعضه بعضاً، ثم المحافظة على الأموال، ثم المحافظة على الأعراض. فدين الإسلام جاء بأعظم حياطة وصيانة للدين، وحياطة وصيانة للنفس، وحياطة وصيانة للعقل، وحياطة وصيانة للنسب، وحياطة وصيانة للمال، وحياطة وصيانة للعرض، وستأتي هذه الأشياء في هذه الدروس كُلٌّ في محله، وقد قدمنا ما جاء منها.

فهذا دين الإسلام الذي بيّن الله فيه كل شيء، وحافظ فيه على جميع المقومات، وأعطىٰ فيه الأجسام حقوقها، والأرواح حقوقها، وأرشد الإنسان إلى عملٍ مزدوج يقوم به الإنسان معاوناً جسمُه روحَه، وروحُه جسمَه؛ لأن من أخلّ بناحية الجسم أهمل، ومن أخلّ بناحية الروح فهو أضيع وأضيع. فعلينا جميعاً أن نعلم أنه لا بدّ من اتباع شرع الله ودين الله، وأن من طلب تشريعاً وتحليلاً وتحريماً في غير ما شرعه الله فهو ليس على دين الإسلام، أحرىٰ أن يكون من المؤمنين الذين يقولون: إن الله ينصرهم وأنه معهم وهم أعداؤه، وقد بيّن الله في القرآن أن الذي له التحريم والتحليل، والأمر والنهي لا يكون إلا له صفات ليست كصفات خلقه، بل صفاته مميزة عظيمة لائقة به دالة على أنه هو الذي يأمر وينهىٰ ويحلل ويحرّم، كقوله

تعالى: ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ وكأنه قال: أتريدون أن تعرفوا صفات من يكون له الحكم في الأشياء ولا يُصْدَر في حكم إلا عنه ما هي؟ ثم بيّنها في قوله: ﴿ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ۝١٠﴾ [الشورى: آية ١٠] ثم بيّن صفات من له الحكم ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ۝١٠ فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ۝١١ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ [الشورى: الآيات ١٠ ـ ١٢] هذه صفات من له الحكم، أما الكفَرَة الفجَرَة الخنازير أبناء الكلاب فليس لهم أن يحكموا في بلاد الله، ولا في عباد الله، ويحرموا ما شاؤوا ويحللوا ما شاؤوا، فمتبعهم هو أعمىٰ الناس بصيرة وأضلهم سبيلاً.

خفافيشُ أعماها النهارُ بضَوئِه فَوَافَقَها قِطْعٌ من الليلِ مظلم(١)

والله (جلّ وعلا) يقول: ﴿وَإِن يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ ۝١٢﴾ [غافر: آية ١٢] الذي له الحكم هو العلي الكبير الذي عُلُوُّه وعظمته فوق كل شيء، وهو أعظم من كل شيء، وأكبر من كل شيء. ويقول (جلّ وعلا): ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝٨٨﴾ [القصص: آية ٨٨] فلا يكون الحكم إلا لمن لا يهلك، ولمن كل شيء هالك إلا وجهه، هذه صفات من له الحكم، ويقول (جل وعلا): ﴿لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَىٰ وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝٧٠﴾ [القصص: الآية ٧٠] ثم بيّن صفات من له الحكم فقال: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ

(١) مضى عند تفسير الآية (١٢٨) من سورة الأنعام.

﴿إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾﴾ إلى آخر الآيات [القصص: آية ٧١]. فالحكم لا يكون إلا للعظيم الأعظم الذي هو الخالق لكل شيء، الرازق لكل شيء، الفاعل ما يشاء في كل شيء، هذا الذي يُتبع تشريعه ويُحل ما أحل، ويحرّم ما حرّم، أما القوانين والنظم الملتقطة من زبالات أذهان الكفَرَة الفجَرَة فلا يتبعها ويعتقدها ويحكمها في أموال المجتمع وعقوله وأنسابه وأديانه وأعراضه إلا من أعمىٰ الله بصائرهم، ومن أعمىٰ الله بصيرته فلا حيلة له ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾﴾ [النور: آية ٤٠] ﴿۞ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ . . .﴾ [الرعد: آية ١٩] لا ليس كمثله.

ومعنىٰ الآية الكريمة: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ﴾ [التوبة: آية ٣٧] اختلف العلماء في تحقيق كلمة (النسيء) هنا[1] فقال بعضهم: هو من (نسأ) الثلاثية وهو (فَعِيْلٌ) بمعنى مفعول، فالعرب تقول: نسأه ينسؤه نَسْئاً، إذا أخره. والعرب تأتي بـ (الفعيل) مكان (المفعول) كما يقولون: قتيل مكان مقتول، وجريح مكان مجروح، ونسيء مكان منسوء، أي: مؤخر. فعلىٰ هذا القول فالنسيء (فعيل) بمعنىٰ (مفعول) كقتيل بمعنىٰ مقتول، وجريح بمعنىٰ مجروح. وعلى هذا فهو من (نَسَأَ) الثلاثية.

والقول الثاني: أن النسيء اسم مصدر (أنسأ) الرباعية على وزن (أَفْعَل) لأن العرب تقول: أنسأ الأمر يُنْسِئه إنساءً ونسيئة. فالإنساء مصدر قياسي، والنسيء مصدر (أَنْسَأَ) مصدراً سماعياً، كما جاء

(١) انظر: ابن جرير (١٤/ ٢٤٣)، القرطبي (٨/ ١٣٦)، الدر المصون (٦/ ٤٦).

النذير مصدراً لأنذر، والنكير مصدراً لأنكر، والنسيء مصدراً لأنسأ، بمعنى: أخّر.

فعلى أن النسيء اسم مصدر بمعنىٰ الإنساء فلا إشكال؛ لأن الإنساء فعل الفاعل، وعلى هذا فلا إشكال في قوله: ﴿زِيَادَةٌ﴾ أي: لأن تأخير الشهر الحرام وإنساءه من نقله من المحرم وتأخيره منه إلى صفر. هذا التأخير والإنساء زيادة في الكفر؛ لأنه أحلّ ما حرّم الله وهو المحرّم، وحرّم ما أحلّه الله وهو صفر.

أما على القول بأن (النسيء) (فعيل) بمعنى (مفعول) وأنه من (نسأ) الثلاثية، وأن النسيء بمعنى الزمان المنسوء، فيكون في قوله: ﴿زِيَادَةٌ﴾ إشكال؛ لأن نفس الشهر المنسوء المؤخر ليس هو عين الزيادة؛ ولذا لا بدَّ في هذا المعنى من تقدير مضاف، أي: إنما نَسْءُ النسيء زيادة في الكفر. أو إنما النسيء ذو زيادة، أي صاحب زيادة في الكفرِ حاصلة فيه. فاتضح من هذا أنه على أن النسيء اسم مصدر من (أَنْسَأَ) فلا تقدير في قوله: ﴿زِيَادَةٌ﴾. وعلى أنه (فعيل) بمعنىٰ (مفعول) من (نسأ) الثلاثية فلا بدّ من تقدير مضاف إما قبل الزيادة أو قبل النسيء، فتقول: نَسْءُ المنسوء زيادة، أي: تأخير الشهر زيادة في الكفر. أو تقول: المنسوء ذو زيادة، أي: صاحب زيادة في الكفر لوقوعها بسببه. وهذا معنى قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ﴾ لأنهم كانوا كفاراً، فلما أحلّوا محرماً وهم يعلمون أن الله حرّمه، وحرموا صفراً وهم يعلمون أن الله ما حرّمه، صاروا بهذا التشريع مرتكبين كفراً جديداً كما بيّنا، ازدادوا بهذا الكفر كفراً جديداً إلى كفرهم الأول.

﴿يَضِلّ به الذين كفروا﴾ و ﴿يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ معناه:

يضلهم الشيطان كما يأتي في قوله: ﴿زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَٰلِهِمْ﴾.

﴿يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا﴾ قد أشرنا بالأمس أن هذه الآية الكريمة من سورة براءة والحديث الذي جاء في مضمونها أن الزمان قد استدار كهيئته.. الحديث[1]. غلط فيه خلق من كبار المفسرين، ومن تكلموا على الحديث، وأن الصورة الحقيقية التي قالت بها جماعة من السلف[2] ـ والقرآن يشهد لصحة قولهم ـ أنها التي كان يعملها الكنانيون القَلَمَّس ومن بعده، وكان شاعرهم يفتخر بذلك ويقول شاعرهم وهو عمير بن قيس المعروف بـ (جذل الطِّعان)[3]:

لقد علمتْ مَعَدٌّ أن قومي كرامُ الناس أنَّ لهم كِرَامَا
ألسْنَا الناسئين على مَعَدٍّ شُهُورَ الحِلِّ نجعلُها حراما
وأيُّ الناسِ لم يدرك بوتْرٍ وأي الناسِ لم يعلك لجَامَا

أنهم كانوا يأتون جنادة بن عوف إذا صدروا من منى، فيقوم ويقول: أنا الذي لا أُجاب ولا أُعاب، ولا مردّ لما أقول هذا العام قد

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب بدء الخلق باب ما جاء في سبع أرضين... رقم: (٣١٩٧)، (٦/ ٢٩٣)، وانظر الأحاديث: (٦٧، ١٠٥، ١٧٤١، ٤٤٠٦، ٤٦٦٢، ٥٥٥٠، ٧٠٧٨، ٧٤٤٧)، وأخرجه مسلم في كتاب القسامة والمحاربين والقصاص والديات، باب تغليظ تحريم الدماء والأعراض والأموال، رقم: (١٦٧٩)، (٣/ ١٣٠٥)، وهو جزء من حديث خطبة حجة الوداع.

(٢) انظر: ابن جرير (١٤/ ٢٤٥)، القرطبي (٨/ ١٣٧)، ابن كثير (٢/ ٣٥٤).

(٣) الأبيات ذكرها ابن هشام ص ٥٦، والبيت الثالث عند الشيخ جعله ابن هشام ثانياً، ولفظه عنده:

فأي الناس فاتونا بوتر وأي الناس لم نعلك لجاما

وقد مضى البيت الثاني منها عند تفسير الآية (٣) من سورة الأعراف.

أخرت عنكم حرمة المحرم إلى صفر فقاتلوا في المحرم، ثم حرّموا مكانه صفراً. ويأتي في العام القابل ويقول مثل مقالته: أنا الذي لا أُجاب ولا أُعاب، ولا مردّ لما أقول، قد حرّمت هذا العام محرماً وأبحت صفراً. كما هي العادة، فيحلّ لهم المحرّم عاماً ويحرّم مكانه صفراً، ويحرّم المحرّم عاماً ويترك الأشهر على حالها(١). وهذا موافق لقوله: ﴿يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا﴾ وموافق لقوله: ﴿لِّيُوَاطِـُٔواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾ [التوبة: آية ٣٧] أما الصور الأخرىٰ فلا تتفق مع الآية.

أما الذين زعموا أنه يقول لهم في بعض السنين: حللت لكم المحرم وصفرا معاً فهما صفران، لا محرم في هذه السنة، وإنما فيها صفران. فيحل لهم المحرم ويترك صفراً على حلاله الأصلي، وفي السنة القابلة يقول: هما محرمان، المحرم الذي كان حراماً، وصفر بدل المحرم الذي حرّمناه في السنة القابلة. فهذا وإن قال به جماعة كبيرة من العلماء(٢) فهو لا يصح؛ لأنهم على هذا القول في إحدىٰ السنتين ما حرّموا إلا ثلاثة أشهر، والأشهر الحرم أربعة، وفي السنة الثانية حرّموا خمسة أشهر، فلم يواطئوا ما حرّم الله لا في السنة الأولىٰ ولا في السنة الثانية. وكذلك قول من قال: إنهم كانوا يسمون صفراً محرماً، ويسمون ما بعد صفر صفراً، وكل شهر يسمونه باسم ما بعده، ويحجون في كل شهر عامين، وأن حجة أبي بكر عام تسع وافقت ذا القعدة، وأن أبا بكر حجّ بالناس عام ذي القعدة، وأن النبي ﷺ حجّ بالناس حجّة موافقة ذا الحجة، وأن هذا معنى

---

(١) تقدم عند تفسير الآية (٣) من سورة الأعراف.

(٢) انظر: ابن جرير (١٤/٢٤٩)، القرطبي (٨/١٣٩)، ابن كثير (٢/٣٥٦).

استدارة الزمان كهيئته يوم خلق السماوات والأرض[١]. فهذا لا شك في أنه فاسدٌ باطل؛ لأن الله صرّح في كتابه بقوله في حجة أبي بكر بالناس عام تسع: ﴿وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوۡمَ ٱلۡحَجِّ ٱلۡأَكۡبَرِ﴾ [التوبة: آية ٣] وقد أذن ببراءة علي (رضي الله عنه) ومن معه يوم الحج الأكبر، ومعلوم أن الله لا ينزل في كتابه يوم الحج الأكبر يريد أنه من ذي القعدة! فهذا من الباطل الذي لا شك فيه، فهذا كله لا يصحّ، فالتحقيق أن هذه الصورة التي نزل بها القرآن التي كان يفعل لهم الكنانيون أنهم سنة يحرمون صفراً ويحلون المحرّم مكانه، وفي سنة يُبقون الأمر على حاله فيحلون المحرّم سنة ويحرّمونه سنة ويواطئوا بذلك ـ يوافقوا ـ عدة ما حرّم الله، وهي أربعة أشهر من السنة. وهذا معنى قوله: ﴿يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا﴾.

العام: السنة، والألف التي في مكان عينه منقلبة عن واو، فيُكَسَّر على (أعوام) فعينه واو.

﴿لِّيُوَاطِـُٔواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾ [التوبة: آية ٣٧] المواطأة: الموافقة، أي ليوافقوا عدة ما حرّم الله؛ لأن الله حرّم أربعة أشهر من السنة فهم يحرّمون قدر ما حرّم الله إلا أنهم يعصون الله بتغييره عن محله، فالعدة هي العدة ولكن عين الزمان ليست هي عين الزمان، فهم يصيبون في العدة ويخطئون في تعيين المعدود، ومن هنا كانوا عصاة بذلك. هذا هو الصحيح في معنى الآية الذي لا إشكال فيه، والصور الأخر فيها نظر، ليست بصواب، وإن قال بها من قال بها من

---

(١) انظر: ابن جرير (١٤/٢٤٨)، القرطبي (٨/١٣٧)، ابن كثير (٢/٣٥٦ ـ ٣٥٧).

العلماء. هذا معنى قوله: ﴿لِّيُوَاطِـُٔوا۟ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّوا۟ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾.

﴿زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَـٰلِهِمْ﴾ زين لهم الشيطان سوء أعمالهم الخبيثة. وهذا يدل على أن من أسوأ الأعمال وأخبثها تحليل ما حرّمه الله وتحريم ما أحلّ الله ﴿زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَـٰلِهِمْ﴾.

﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾﴾ [التوبة: آية ٣٧] هذه الآية وأمثالها بالقرآن فيها سؤال معروف، وإشكال مشهور، وهو أن يقول طالب العلم: هذه الآية وأمثالها صرَّح الله فيها بأنه لا يهدي الكافرين، مع أنَّا نشاهد الله يهدي كثيراً من الكافرين، فالله يهدي من يشاء من الكفار، ويضل من يشاء، فما وجه تعميمه في قوله: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾﴾ هذا وجه السؤال.

وللعلماء عنه جوابان معروفان:

أحدهما: أن هذه الآية الكريمة وأمثالها في القرآن من العامّ المخصوص، أي: لا يهدي القوم الكافرين الذين سبق في علمه عدم هدايتهم وشقاؤهم شقاءً أزلياً، كقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ﴾ [يونس: الآيتان ٩٦، ٩٧] وقوله: ﴿لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٧﴾﴾ [يس: آية ٧] ونحو ذلك من الآيات. وعلى أن هذه الآية الكريمة من العامّ المخصوص بآياتٍ أخر فلا إشكال.

وقال بعض العلماء: ﴿لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ ما دام الله (جلّ وعلا) مريداً منهم أن يكونوا كافرين، فإذا شاء الله أن [يهديهم

هداهم. وقال بعض العلماء: لا يهديهم ما داموا مصرّين على كفرهم](١).

/ نقول(٢): إن من عادتنا التي نجري عليها في هذه الدروس، [٧/أ] أن نتعرض لما نظن أنه يسأل عنه طلبة العلم، وقد مرّ في الآية الماضية أمس، سؤال معروف يتساءل عنه طلبَة أهل العلم، ونسينا أن نتكلم عليه، فأحببنا أن نستدركه الآن تتميماً للفائدة، ونعني بذلك: أنا ذكرنا في اليومين الماضيين، أن العلماء اختلفوا في نسخ الأربعة الحرم، وأن قوماً قالوا: نُسخت، فجاز للمسلمين الجهاد في كل السنة، وأن جماعة من العلماء قالوا: إن تحريمها باق لم يُنسخ، وذكرنا أنّا كنّا أولاً نعتقد صحة نسخها، وأنّا عرفنا بعد ذلك أن الصحيح عدم نسخها، وذكرنا أن من أصرح الأدلة على نسخها ما ثبت أن النبي ﷺ حاصر ثقيفاً بالطائف في بعض ذي القعدة وهو شهر حرام، ولو لم يكن القتال فيها حلالاً لما حاصرهم فيها، فعلمنا من هنا أن طالب العلم يقول: إذا قررتم أن التحقيق عدم نسخها فما وجه حصار النبي ﷺ لثقيف في الشهر الحرام؟!

هذا هو السؤال الذي كنا نود أن نتعرض للإجابة عنه، وهذا

(١) انقطاع في التسجيل، ويمكن مراجعة جواب الشيخ (رحمه الله) على هذا الإشكال عند تفسير الآية (١٤٥) من سورة الأنعام، وما بين المعقوفين [ ] زيادة يتم بها الكلام.

(٢) تنبيه: في تفسير الشيخ (رحمه الله) لهذه الآية بقي الجواب عن إشكال معروف وهو توجيه حصار النبي ﷺ لثقيف في الشهر الحرام، وقد استدرك الشيخ (رحمه الله) هذه المسألة والجواب عنها في بداية الكلام على الآية التي بعدها، فألحقته في موضعه هنا، وجعلت الآيات (٣٨، ٣٩)، بعد جواب الشيخ عن هذا الإشكال.